TURATH Journal of Al-Quran and Al-Sunnah

التوجه نحو المسجد الأقصى: مركزية القبلة الأولى في التكوين العقدي للصحابة في الفترة المكية

Facing Al-Aqsa Mosque: the Centrality of the First Qiblah in the Doctrinal formation of the Sahabah in the Makkan Period

Khalid El-Awaisi[1*]

[1] Bayt al-Maqdis Studies and Islamic History, Social Sciences University of Ankara, Hükümet Meydanı No: 2, 06050 Ulus, Altındağ, Ankara, Turkiye [ORCID ID 0000-0001-9994-3305]

*Corresponding author: halid.uveysi@asbu.edu.tr

DOI: https://doi.org/10.17576/turath-2026-1101-11

Article history

Received: 02/05/2026 Revised: 01/06/2026 Accepted: 18/06/2026 Published: 30/06/2026

ملخص البحث

شكّلت القبلة الأولى نقطة محوريّة روحانية وتعبدية في تاريخ النبوة وتكوين نواة المسلمين الأولى في الفترة المكية، إذ لم تكن مجرد اتجاه للصلاة، بل كانت عنوانًا للربط العقدي بموقع بيت المقدس في خارطة الوحي. ومن هذا المنطلق، جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على تلك المرحلة التأسيسية في الوعي الإسلامي المبكر. تهدف الدراسة للبحث في العلاقة العقدية والروحية بين رسول الله ﷺ وأصحابه وبيت المقدس من خلال تتبع مسار القبلة الأولى في الفترة المكية. والبحث في هذا الموضوع نابع من الحاجة إلى إبراز دور المسجد الأقصى كقبلة تأسيسية للمسلمين قبل الهجرة، وتعزيز فهم الأثر التربوي والوجداني لتلك المرحلة على تكوين الصحابة الأوائل. يعتمد البحث على الآيات والأحاديث وآثار الصحابة لإثبات مركزية المسجد الأقصى في الشعائر والوعي الإسلامي المبكر، ويكشف ترابط الاتجاه التعبدي مع تشكيل الهوية الإسلامية الأولى. وتعتمد الدراسة على المنهج الاستقرائي والتحليلي، بتتبع النصوص القرآنية والنبوية ومواقف الصحابة في الفترة المكية، وربطها بتحولات القبلة. كما استفاد من المنهج التاريخي في تتبع المواقع التي اتجهت للقبلة الأولى وتحليل دلالاتها الشعائرية. وتوصلت الدراسة إلى أن توجيه الصحابة صلاتهم نحو بيت المقدس لم يكن قرارًا شعائريًا فحسب، بل شكّل بوصلة روحية وجماعية تربطهم بميراث الأنبياء السابقين. كما أكدت استمرار هذا الاتجاه في مواقع متعددة كيثرب والحبشة وبيت المقدس، بل وانعكاسه على إقامة الصلوات المكتوبة في الحياة وتوجيه القبور إليها بعد الممات. ويقدّم البحث رؤية جديدة في فهم أبعاد القبلة الأولى، ويعيد إبراز دور المسجد الأقصى في التكوين العقائدي والوجداني، ويفتح آفاقًا لدراسات مستقبلية حول الجغرافيا المقدسة. ويوصي البحث بضرورة إدماج بيت المقدس ضمن مناهج السيرة، لا بوصفه محطة في الإسراء فحسب، بل مركزًا تأسيسيًا في شعائر المسلمين الأوائل.

الكلمات المفتاحية: القبلة، بيت المقدس، المساجد الأولى، صلاة الأنبياء، الهوية الإسلامية.

© 2026 All rights reserved

Abstract

The first Qiblah represented a pivotal spiritual and ritual axis in the history of prophethood and the formation of the early Muslim community during the Makkan period. It was not merely a directional orientation for prayer, but a symbolic nexus linking the divine messages of previous prophets to the sanctity Bayt al-Maqdis within the geography of revelation. This study aims to shed light that formative phase in early Islamic consciousness. The study aims to examine the theological and spiritual relationship between Prophet Muhammad, his companions, and Bayt al-Maqdis, through tracing the trajectory of the first Qiblah during the Makkan period. The research emerges from a scholarly need to underscore the foundational role of al-Aqsa Mosque as the first Qiblah prior to the Hijrah, and to deepen understanding of its pedagogical and educational impact on the spiritual development of the Prophet's companions. Drawing upon Qur'anic verses, Prophetic traditions, and narrations of the Sahabah, the study demonstrates the centrality of al-Aqsa in early Muslim worship and identity formation. Employing inductive and analytical methodologies, alongside historical methodology, the study maps the devotional orientation of the early Muslims and interprets its symbolic resonance. It concludes that the direction of prayer towards Bayt al-Maqdis was not a mere ritual choice, but a spiritual compass aligning the emerging Muslim community with the legacy of previous prophets. This orientation persisted across various regions -including Madinah, Abyssinia, and Bayt al-Maqdis- and extended beyond life into burial practices. The study offers a novel perspective on the dimensions of the first Qiblah, reasserting the formative role of al-Aqsa Mosque in shaping Islamic theology and religious observance, and opening horizons for future studies on sacred geography. It calls for the integration of Bayt al-Maqdis into the study of Prophetic Sirah -not merely as a transit-point in the Night Journey, but as a foundational locus in the spiritual architecture of early Islam.

Keywords: Bayt al-Maqdis, Early Mosques, Islamic Identity, Prayers of the Prophets, Qiblah

تمهيد

شكّلت بيت المقدس وفي قلبها المسجد الأقصى المبارك بوصلة عقدية وروحية مركزية في خارطة البعثة المحمدية منذ انطلاقتها الأولى، إذ ارتبطت العلاقة به ارتباطًا وثيقًا بالرسالة السماوية، لا على مستوى الجغرافي فحسب، بل في المعنى التوحيدي والبناء النبوي الجامع. فالعلاقة بين رسول الله ﷺ وبيت المقدس بدأت مع بداية بعثة رسول الله ﷺ، فلم يكن رسول الله محدثا شيئا لم يكن بين الرسل (ابن عاشور، 1984) وهذا نصه القران الكريم على لسان رسول الله لأهل مكة ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِير مُّبِين﴾– سورة الأحقاف: (46: 9). وبذلك كان رسول الله بالنص القرآني ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾– سورة الأحزاب: (33: 40)، فجاء امتدادًا لسلسلة الرسل الذين سبقوه ليُتمّ الله به البناء النبوي الذي وضعت لبناته منذ بداية مع آدم عليه السلام. بذلك أتم الله به بناء متكامل لبيت حسن جميل فكان هو ﷺ آخر لبنة كما شبهه هو إذ قال: "فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" (البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خَاتِمِ النَّبِيِّينَ ﷺ، رقم 3342). فأتى رسول الله مُتماً لطريق بدأها قبله أنبياء ورسل اصطفاهم الله على العالمين (سورة آل عمران 3: 33)، وكان رسول الله ﷺ أولى بالأنبياء بمن فيهم أبيه إبراهيم عليه السلام، إذ قال الله في كتابه ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾– سورة آل عمران (3: 68). وكان بين الكثير من الأنبياء وبيت المقدس وأرضها المقدسة علاقة وطيدة كما تم سرده في القرآن المكي؛ فكانت علاقة هجرة وميلاد وحكم وجهاد ودعوة وتبوء لتلك

الأرض التي ساقهم الله إليها. فكان حق على رسول الله ان يُتمم ما بدأه الأنبياء من قَبله فيربط بين المساجد العتيقة والقبلة التي كان عليها من سبقه من الأنبياء والرسل وإعادة الأمور إلى أصلها القديم. وهذه الروابط بدأت مع رسول الله برابط القبلة وتطورت بالقصص القرآني للأنبياء وحروب الأمم على أرضها وتُوِّجَت في نهاية الفترة المكية برحلة الاسراء والمعراج قبل الهجرة.

يسعى هذا البحث إلى تحليل العلاقة الشعائرية والعقدية بين رسول الله ﷺ وأصحابه ببيت المقدس من خلال محور القبلة الأولى، ويتجه إلى الكشف عن الأثر لهذا التوجّه في تكوين الهوية الإسلامية الأولى. فتناقش الورقة فكرة ابتداء صلاة رسول الله والصحابة وأصلها في صلاة الأنبياء والقبلة التي كانوا يتوجهون إليها في صلاتهم. كما يهدف البحث إلى إثبات مركزية المسجد الأقصى في الفترة المكية، واستظهار انعكاس هذه المركزية في ممارسات الصحابة الشعائرية، بما في ذلك بناء المساجد والمصليات باتجاه المسجد الأقصى حتى في يثرب والحبشة. تأتي هذه الدراسة كمحاولة لسد فجوة في الدراسات السابقة التي تناولت القبلة من زاوية تحولها للكعبة، دون التأسيس للأسس السابقة، لتُعيد الاعتبار للمرحلة المكية ولقبلة التكوين الروحي، لا قبلة التحول التشريعي فقط.

منهج البحث

تعتمد الدراسة على منهجٍ استقرائيٍّ تحليليٍّ يتتبع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة ببيت المقدس. وقد تم التركيز على آيات القرآن المكي والاعتماد على مصادر الحديث والتفسير، وكتب السيرة، ومرويات الصحابة، لتحليل الأبعاد العملية لهذا التوجه. كما يتبنى البحث منهجًا تاريخيًا في رصد عبادة المسلمين قبل الهجرة، مستندًا إلى تحليل المواقع والجهات التي توجّه فيها المسلمون نحو بيت المقدس، إضافة إلى استنباط البعد التعبدي من سياقات الإسراء والمعراج والربط بين المسجدين. وتتميّز هذه الورقة بأنها تعيد صياغة فهم القبلة ضمن سياق التكوين النبوي في الفترة المكية، وتُبرز أبعادًا جديدة غير مطروقة في الدراسات التقليدية التي ركزت على تحويل القبلة في الفترة المدينة. كما تقدم مقاربة تُدمج بين الشعائر العقدية والتاريخ الجغرافي للمقدس الإسلامي، وتفتح المجال أمام دراسات مستقبلية تتناول العلاقة بين الشعيرة والمكان والهوية.

الرابط الروحي

ارتبطت السيرة النبوية ببيت المقدس منذ بداية البعثة المحمدية؛ إذ كان المسجد الأقصى قِبلة من سَبق محمد ﷺ من الأنبياء والرسل كما يذكر ابن كثير (1968): "فلهذا كانت [صخرة بيت المقدس] قبلة الأنبياء بعده [يوشع] إلى زمان رسول الله ﷺ". وكان أول ما أُمر به رسول الله ﷺ هو الصلاة. فقد كان "أول ما أنزل من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ عند جماهير العلماء وقد قيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ روى ذلك عن جابر" (ابن تيمية 2004). وفي كلتا السورتين هناك ذكر واضح للصلاة ويتبع ذلك في سورة المزمل والسور المكية الأخرى التي نزلت بعدها، أمر واضح بالصلاة. ورابط الصلاة والقبلة التي يتوجه اليها الانسان في صلاته هي من أهم الروابط الروحية التي تربط الانسان

بمكان بعينه، فتصبح مجمعا يهفو إليه المؤمنين ومحلا تشتاق وتَحِنُّ إليه أرواحهم. فيذكر الامام الرازي في تفسيره عند الحديث عن الكعبة ومركزية القبلة لأرواح المؤمنين:

"أن العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية، وقلوبهم قدسية وأسرارهم نورانية وضمائرهم ربانية ثم إن تلك الأرواح الصافية إذا توجهت إلى كعبة المعرفة وأجسادهم توجهت إلى هذه الكعبة الحسيّة فمن كان في الكعبة يتصل أنوار أرواح أولئك المتوجهين بنور روحه، فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه، ويعظم لمعان الأضواء الروحانية في سره وهذا بحر عظيم ومقام شريف" (الرازي، 1420هـ، ج8، ص300).

فبذلك تكون القبلة بمثابة قوةُ الجاذبيَّة التي تهفو إليها أرواح المؤمنين وتجمعهم وتوحدهم حول مركزها لكونها قِبلة أرواحهم فيكونون بذلك أهل القبلة الواحدة الموحِدة. وبما أن بيت المقدس كانت القبلة الأولى في بداية الإسلام، فإن هذا يعني أن المسجد الأقصى كان مركزًا روحانيًا تتجه إليه أرواح المؤمنين من كل مكان، مما يجعله مجمعًا نورانيًا تتلاقى فيه الأرواح المؤمنة، وتشتاق إليه القلوب، وتزداد به الأنوار الإلهية. وهذا ما يفسر ارتباط الصحابة به، وحنينهم للصلاة فيه، حتى قبل أن يُفتحوه ويصلوا فيه.

ابتداء الصلاة

نجد فكرة الصلاة موجودة عند كثير من الأديان والأقوام وقد شكل كل دين شكلا لصلاتهم تتفق مع ما يرونه تعظيما للإله أو الآلهة، وطريقة للتوسل إليه (علي، د.ت.). وقد كان العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام ويصلون إليها مع ايمانهم بالله، فكانوا يعبدون الاصنام لتقربهم إلى الله زلفا. مع هذا فقد كان هناك بواقي لدين إبراهيم عليه السلام فكانوا يحجون البيت الحرام ويطوفون حوله لكن صلاتهم هذه بها تصفير وتصفيق لم يقبلها الإسلام. وقد ذكر الله صلاتهم المحرفة هذه ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾– سورة الأنفال: (8: 35). ومنذ بداية البعثة المحمدية كانت الصلاة أساسا هاما في دعوة رسول الله ﷺ، ولم يختلف أهل العلم في أن الصلاة كانت موجودة قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج (القاسمي، 1418هـ؛ ابن رجب، 1417هـ). ذكر ابن رجب:

"والأحاديث الدالة على أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة قبل الإسراء كثيرة، لكنْ قد قيل: إنه كان قد فُرض عليه ركعتان في أول النهار، وركعتان في آخره فقط، ثم افْتُرضت عليه الصلوات الخمس ليلة الإسراء. قاله مقاتل وغيره... وفيه دليل على أن الصلاة شرعت من ابتداء النبوة، لكن الصلوات الخمس لم تفرض قبل الإسراء بغير خلاف" ابن رجب، 1417هـ، ج 2، ص304-306).

والآيات المكية دليل على ذلك ففي سورة الأعلى يذكر الله سبحانه ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾– سورة العلق: (96: 10) وقد ذكر ابن عطية: "ولم يختلف أحد من المفسرين أن الناهي: أبو جهل، وأن

العبد المصلي هو محمد ﷺ (ابن عطية، 1422هـ). وفي نهاية السورة أمر من الله لنبيه بإتمام الصلاة والسجود ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾- سورة العلق: (96: 19). وهنالك ما يؤازر هذه الرواية من الحديث الصحيح فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن سبب نزول هذه الآيات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأُ عَلَى رَقَبَتِهِ..." (مسلم، صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: إن الإنسان ليطغى، رقم 2797). والمقصود هنا سجود رسول الله ﷺ وصلاته بين ظهراني قريش وعلى مرأى منهم، وبيان أن رسول الله ﷺ صلى فرآه رهط من أهل مكة وقول أبي جهل يدل على أنه بحث عن رسول الله فرآه يصلى وأراد أذيته فعصمه الله منه.

وفي الحديث الصحيح عن زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام أَتَاهُ فِي أَوَّلِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ فَعَلَّمَهُ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ" (ابن حنبل، مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث زيد بن حارثة، رقم 17480؛ وصححه الألباني، 1995) ويروي ابن اسحاق خبر أول صلاة صلاها النبي مع جبريل ثم مع زوجه خديجة:

> "ثم أن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين افترضت عليه الصلاة، فهمز له بعقبة في ناحية الوادي فانفجرت منه عين ماء مزن، فتوضأ جبريل عليه السلام، ومحمد ينظر إليه، فوضأ وجهه ومضمض واستنشق ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين، ونضح فرجه، ثم قام فصلى ركعتين، وسجد أربع سجدات على وجهه، ثم رجع النبي ﷺ قد أقر الله عينه وطابت نفسه، وجاءه ما يحب من الله، فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها العين، فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سراً"(ابن إسحاق، 1978، ص 136).

ويذكر ابن هشام نحو ذلك ثم يذكر ما تبعها من إسلام علي بن أبي طالب وصلاته مع رسول الله ﷺ في شعاب مكة، ورؤية أبو طالب لهما وهم يصلون وقول علي لأبيه أبو طالب: "يا أبت، آمنت [بالله و] برسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته". ومن ثم يذكر ابن هشام إسلامَ زيد بن حارثة وأنه "أَسْلَمَ، وَصَلَّى بَعْدَ عَلِيٍّ" (ابن إسحاق، 1955). ويذكر ابن هشام: وَقد كَانَ رَسُول الله ﷺ يسْتَقْبل الصَّخْرَة من بَيت الْمُقَدّس مُدَّة مقَامه بِمَكَّة وَهِي قبْلَة الْأَنْبِيَاء وَكَانَ يقف بَين الرُّكْنَيْنِ اليمانيين إِذْ كَانَ لَا يُؤثر استدبار الْكَعْبَة فَلَمَّا هَاجر إِلَى الْمَدِينَة لم يُمكن استقبالها إِلَّا باستدبار الْكَعْبَة وعيرته الْيَهُود وَقَالُوا إِنَّه على ديننَا وَيُصلي إِلَى قبلتنا فَسَأَلَ الله تَعَالَى أَن يحوله إِلَى الْكَعْبَة فَنزل قَوْله تَعَالَى ﴿قد نرى تقلب وَجهك فِي السَّمَاء﴾ الْآيَة. وذكر أيضاً إسلامَ أبي بكر وأولِ خمسةٍ أسلموا معه وأتى بهم إلى رسول الله "فأسلموا وصلو"(ابن إسحاق، 1978). وهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله (ابن هشام، 1955). ويروي ابن إسحاق ذلك أيضا: "فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس إلى الإسلام فصلوا، وصدقوا رسول الله" (ابن إسحاق، 1978).

ونرى من هذه الأحاديث الصحيحة وروايات أهل السيرة ما يعضد أن أمر الصلاة كان منذ أول بعثة الرسول بل كانت أولَ ما يعلّمه رسولُ الله لمن يسلم بدعوته، بدءاً بزوجتهِ خديجة وبقيةِ أهل بيته، ثم مَن تَبِعَه من

الصحابة. وكما في حديث عائشة رضي الله عنها أن صلاة رسول الله ﷺ في الابتداء كانت ركعتين؛ "فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا، وَتُرِكَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ عَلَى الأولى"(البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ، رقم 3720).

وفي أوائل ما نزل من السور المكية (الزركشي، 1990) ما يشير للصلاة؛ ففي سورة المدثر ذكر للصلاة عدة مرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾- سورة المدثر: (74: 1-4). وفي هذا أمر لرسول الله إلى تعظيم الله بعبادته، والرغبة إليه في الحاجات دون غيره من الآلهة والأنداد كما يذكر الطبري (2001). وفي نفس السورة هناك حديث عن عذاب المجرمين وربطه بعدم صلاتهم في الدنيا كأحد أسباب دخولهم جهنم ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾- سورة المدثر: (74: 42-43). وفي السورة التي تلت المدثر نزولا سورة المزمل، بها الاشارة للصلاة واضحة في وجوب قيام الليل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾- سورة المزمل: (73: 1-4). فكان رسول الله ﷺ وأصحابه فيما ذُكر يقومون الليل فرضا، نحو قيامهم في شهر رمضان فيما ذُكر حتى خفف ذلك عنهم (الطبري، 2001). ويروي الطبري أن هذه المدة كانت عشر سنين وفي رواية أخرى حولاً (سنة) أو حولين (سنتين) حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم (الطبري، 2001).

ويأمر الله نبيه في سورة الشرح إذا فرغ من أمور الدنيا وأشغالها أن ينصب في العبادة ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾- سورة الشرح: (94: 7)، كما نقل ابن كثير في تفسيره عن مجاهد (ابن كثير، 1998). وبعد هذه المدة -على اختلاف الروايات فيها- نزلت آخر آية في سورة المزمل، وقد قيل إنَّها مدنية، تَذكُر صلاة رسول الله وأصحابه لأجزاء طويلة من الليل ونزل التخفيف فأصبح قيام الليل تطوّعا بعد أن كان فريضة على كل مسلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾- سورة المزمل: (73: 20). وإن صحَّ ما رواه بعض العلماء بأنها مدنية النزول، فيكون فرض قيام الليل امتد لأكثر من عشر سنين ونُسخ فرضها في المدينة. وتؤكد ما كان عليه المؤمنون الأولون من ذلك آيات سورة الذاريات والتي نزلت في مرحلة متأخرة من الفترة المكية: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ - سورة الذاريات: (51: 17-18).

لم تقتصر الآيات على ذكر الصلاة في هذه السور الأربع الأولى بل نجد ذكر الصلاة أيضا في سورة الأعلى في آخرها يذكر سبحانه ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾- سورة الأعلى: (87: 14-15). وفي سورة الكوثر -التي هي الثانية عشر نزولا في القران المكي- أمر واضح لرسول الله بالصلاة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ - سورة الكوثر: (108: 2)، وقد أشار عدد من المفسرين إلى أن لفظ النحر في الآية لا يُحمل على الذبح في الحج، إذ لم يكن قد فُرض بعد، بل ارتبط بهيئة الصلاة. ففسّره بعضهم بوضع اليد اليمنى على الشمال، وآخرون

برفع اليدين إلى مستوى النحر عند التكبير، فيما ذهب فريق ثالث إلى أنه الانتِصَابُ في الصَّلَاةِ نَحر المحراب. وهذا التعدد في الأقوال يؤكد أن الدلالة هنا تعبّدية مرتبطة بالصلاة، لا مناسكية متعلقة بالحج (الطبري، 2001؛ القرطبي، 1964). ويأتي في أواخر سورة ق أمر لرسول الله بتسبيح الله وتحميده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن الليل، ما شرحه المفسرون بالصلاة المكتوبة قبل الإسراء ويذكر ابن عطية "وَسَبِّحْ معناه: صل بإجماع من المتأولين" (ابن عطية، 1422هـ؛ ابن عاشور، 1984)، الآية: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾- سورة ق: (50: 39-40). ويُفصل ابن كثير في تفسير هذه الآية إذ يقول:

"وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبا على النبي ﷺ وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب"(ابن كثير، 1998، ج7، ص 382-383).

وقد ثبت عن رسول الله أن المقصود هنا بالتسبيح هو الصلاة كما روى البخاري ومسلم في سياق الآية عن جرير بن عبد الله قال: "كُنَّا عِنْدَ النبيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيْلَةً – يَعْنِي البَدْرَ – فَقَالَ: إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ لا تُغْلَبُوا علَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ الغُرُوبِ﴾"(البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، رقم 4570؛ مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، 633). وفي الحديث توضيح لكون المقصود من التسبيح المأمور به في هذه الآيات هو الصلاة.

وأيضا في سورة القلم –وهي من أوائل السور المكية– إشارة إلى أن الكفار في هذه الدنيا قد دُعوا للسجود لله وحده فرفضوا ﴿قَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾- سورة القلم: (68: 43)، وقد ذكر القرآن ذاك الأمر الواضح لهم على لسان رسول الله في آخر سورة النجم أمر للناس أن يسجدوا لله في صلاتهم دون مَن سواه من الآلهة والأنداد وأن يعبدوه سبحانه دون غيره ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾- سورة النجم: (53: 62)، وهذه القصة حدثت بعد هجرة الحبشة الأولى في بداية الدعوة الجهرية (ابن كثير 1968). ولم يقتصر على السجود بل ذكر ركن آخر من الصلاة وهي الركوع في سورة المرسلات ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾- سورة المرسلات: (77: 48)؛ ويفصل البغوي أن المقصود: "وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا، يعني صَلُّوا، لَا يَرْكَعُونَ، لَا يُصَلُّونَ" (البغوي 1420هـ)، وفي سورة الفرقان التي تلا نزولها سورة المرسلات فيها أمر واضح لأهل مكة للسجود لله وحده ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا﴾- سورة الفرقان: (25: 60). فقد كان من أهداف دعوة رسول الله إنذار الناس ودعوتهم للركوع والسجود لله وحده، بل وذكرهم الله في آيات أخرى مكية بعاقبة من لا يفعل إذ قال سبحانه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾- سورة الماعون:

(107: 4-5) و ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾- سورة القيامة: (75: 31)، ويذكر الطبري في تفسير الآية أن "لم يُصلِّ له صلاةٌ" (الطبري، 2001). وكل هذه الآيات تدلّ على شكل الصلاة وهيئتها بركوعها وسجودها بصورتها الكاملة كركن تعبدي جامع في الآيات النازلة في مطلع الفترة المكية.

وقد حدد الله سبحانه لرسوله بأمر واضح إقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها كما في عدد من السور المكية؛ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾- سورة هود: (11: 114). ويرجح ابن كثير بان هذه الآية المكية نزلت قبل رحلة الإسراء والمعراج وفرض الصلوات الخمس ليلتها، حيث أنه كان قبل ذلك في النهار صلاتان مفروضتان؛ "صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة..." (ابن كثير، 1968). بل يؤكد القرطبي بأنه "لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة"(القرطبي، 1964)، وقد أجمعوا على أن الصلاة في طرف النهار الأول هي صلاة الفجر واختلفوا في المقصود من الصلاة في الطرف الآخر. أما بعد الإسراء إلى بيت المقدس فقد فَصلت الآيات الصلوات المفروضة؛ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾- سورة الاسراء: (17: 78). ويذكر القرطبي بأن هذه الآية "بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِشَارَةٌ إِلَى الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ"(القرطبي، 1964). وقد ذم الله البشر وخص منهم الجزوع واستثنى من ذلك المصلين قائلا ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾- سورة المعارج: (70: 22-23)، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾- سورة المعارج: (70: 34).

وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يَصدَح بإيمانه لله وحده مخالفا للمشركين في عقيدتهم وأنه على دين إبراهيم عليه السلام؛ ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۞ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾- سورة الأنعام: (6: 161-162). وتدلل هذه الآية على عباداته ﷺ ومنها الصلاة. بل كانت دعوته عليه السلام كي يؤمن الناس ويحافظوا على صلاتهم ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾- سورة الأنعام: (6: 92). وقد كان يضيق صدر النبي مما يسمعه من تكذيب المشركين له، فيأمره الله بالسجود؛ ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾- سورة الحجر: (15: 97-98). ويفصل القرطبي معنى سبح "أَيْ فَافْزَعْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَهِيَ غَايَةُ التسبيح ونهاية التقديس" وفي ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ "لَا خَفَاءَ أَنَّ غَايَةَ الْقُرْبِ فِي الصَّلَاةِ حَالُ السُّجُودِ... وَلِذَلِكَ خَصَّ السُّجُودَ بِالذِّكْرِ الثَّانِيَةُ" (القرطبي 1964). وقد كان المشركون إذا صلى بأصحابه وسمعوا قراءته للقرآن سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فأمره الله أن يخفض صوته؛ ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾- سورة الإسراء: (17: 110). ويذكر أن هذه الواقعة كانت ورسول الله متخف في مكة في بداية الدعوة (البخاري، صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: باب: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾، رقم 4445).

ولقد كان أمر الله سبحانه لرسوله وأمته بالصلاة ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾- سورة العنكبوت: (29: 45)، والمقصود أدّاء الصلاة التي فرضها الله بحدودها كما

يروي الطبري، ويضيف القرطبي (1964) بأن الخطاب للنبي ﷺ وأمته. بل وأراد الله أن تكون هذه الصلاة بخشوع تام، وأشار لذلك بصيغة المدح سبحانه قائلا: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾- سورة المؤمنون: (23: 1-2)، ومن ثم أعاد ذكر الصلاة مرة أخرى في نفس السياق ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾- سورة المؤمنون: (23: 9)، وذكر ما ينتظرهم من مكرمات في الجنة.

وقد تم ذكر المسجد والمساجد في الفترة المكية في سورتي الأعراف والجن -المتتاليتين نزولا- ومن ثم في سورة الكهف والإسراء. ففي سورة الأعراف ذكر سبحانه ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾- سورة الأعراف: (7: 29)، وفي نفس السورة في آية تالية ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾- سورة الأعراف: (7: 31). وهذا أول ورودٍ لمصطلح المسجد في القرآن المكي، حيث يُستعمل بمعنى مكان العبادة، مع دلالة ضمنية على القبلة، كما يُستعمل أيضًا في سياق الصلاة والعبادة، مما يكشف عن البعد الشعائري والرمزي للمفهوم منذ بدايات التنزيل. وفيها كذلك أهمية تعظيم المساجد، وبياناً لضرورة احترامها ولبس أجمل اللباس عند الذهاب لها، حيث كان بعض من يأتي المسجد الحرام يطوفون بالبيت عراة، فأمر سبحانه بتعظيم المساجد. وقد ذكرت سورة الجن أن المساجد أضحت علما على أماكن عبادة الله وحده؛ ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾- سورة الجن: (72: 18). وأشارت قصة أصحاب الكهف بأن فكرة المساجد سبقت محمدا ﷺ، حيث أنهم بنوا مسجدا على كهفهم؛ ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾- سورة الكهف: (18: 21). وذكره سبحانه في سورة التوبة المدنية، إشارة لأول مسجد أسسه الصحابة في المدينة، مسجد قباء، يعزز أن المسلمين أعادوا إحياء المساجد فقال تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾- سورة التوبة: (9: 108). بل تؤكد ذلك تسمية الكعبة بـ"المسجد الحرام" والبيت المُقدس بـ"المسجد الأقصى" في سورة الإسراء بأن المساجد كانت سابقة للنبي وأنه وأصحابه أعادوها لأصلها، كما حدث بعد فتح مكة من تطهير المسجد الحرام من الأصنام والأوثان التي أضافها العرب وفي بيت المقدس بعد الفتح. ومع هذا لم تفقد الكعبة صفة المسجد حتى مع وجود الأصنام، وكذلك المسجد الأقصى فهو مسجد الأنبياء قبل محمد ﷺ. وذكر عليه الصلاة والسلام أنه لما أُسري به إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس جُمع له الأنبياء، فصلى بهم في المسجد إماماً وكانوا يصلون بصلاته. وهذا به تأكيد لكونه مسجدا قبل الرسول ﷺ وبأن الأنبياء المأمومين كانوا يقتدون بإمامهم محمد عليه الصلاة والسلام؛ فإذا كبّر كبّروا، وإذا قرأ أنصتوا، وإذا قام قاموا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا قعد قعدوا، وإذا سلّم سلّموا من ورائه صلى الله عليه وعليهم جميعاً وسلّم فهذا ما يقتضيه الشرع في اقتداء المأموم بالإمام. وأن الصلاة التي صلاها بهم كانت معروفة عندهم، فصفة الصلاة عند الأنبياء جميعاً، متقاربة، بل حتى الملائكة يصلون، ولهم صلاة بها قيام وركوع وسجود ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩﴾- سورة الاعراف: (7: 206).

وقد ثبت في الصحيح أنه بعد أن افترضت الصلوات الخمس بعد الإسراء، "نَزَل جبريلُ فأمَّني، فصلَّيتُ معه"، وأن جبريل أتاه في اليوم الأول فصلى بالنبي ﷺ الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ثم الفجر في أول الوقت. وفي اليوم الثاني نزل عليه السلام فصلى بالنبي ﷺ الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ثم الفجر في آخر الوقت. وبذلك أضحت الصلوات الخمس هي المفروضة على كل مسلم في كل يوم وليلة، ونسخت ما كان قبلها من صلوات مفروضة (البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم 3049؛ مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، رقم 610). ونرى من خلال الأدلة السابقة بأنه لا تكاد تخلو السور المكية والأولى منها نزولا –خصوصا الأربع الأوائل– وكذلك باقي السور المكية من الإشارة إلى فرض الصلاة وأوقاتها وكذلك عمادها الركوع والسجود. بل وفي القرآن المكي إشارة لفكرة المساجد وأنها سابقة لنبوة محمد ﷺ. ويبقى موضوع الصلاة أحد المواضيع التي يشير اليها القران المكي في كثير من سوره وخصوصا صلاة الأنبياء عليهم السلام وكيفيتها، لذا وجب تفصيلها لأن الأمر ما زال به لبس عند الكثير.

صلاة الأنبياء

فكرة العبادة والصلاة ضاربة في القدم منذ الأزل؛ إذ لم يخلق الله سبحانه البشر إلا لعبادته وحده والتذلل إليه؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾– سورة الذاريات: (51: 56). وهذا النص يؤكد أن العبادة هي الغاية الوجودية الأولى، وأن الصلاة تمثل تجسيدًا عمليًا لهذه العبودية في مسار التاريخ الإنساني. وقد كانت المساجد موجودة قبل رسول الله ﷺ وقد ذكر الله سبحانه أن الكعبة هي ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾– سورة آل عمران: (3: 96). بل وقد كانت رسالة جميع الأنبياء بأن يأمروا قومهم بعبادة الله كما تذكر العديد من الآيات، ابتداء بخطاب نوح عليه السلام لقومه، ومن ثم هود وصالح وشعيب خاطبوا قومهم بنفس الخطاب ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (سورة الأعراف 7: 59، 65، 73، 85؛ سورة هود 11: 50، 61، 84؛ سورة المؤمنون 23: 23، 32). وكذلك ذكرت على ألسنة الأنبياء بصيغ أخرى تأمرهم بعبادة الله (سورة النمل 27: 45؛ سورة العنكبوت 29: 16، 36؛ سورة نوح 71: 3)، بل وكان ذلك ديدن كل الأنبياء ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾– سورة النحل: (16: 36). لذا لم تكن العبادة ومنها الصلاة بدعة ابتدعها خاتم النبيين محمد ﷺ، فبعد الآيات التي تحدثت بأمر الصلاة لرسول الله وأصحابه، نزلت العديد من الآيات تشير إلى صلاة من سبق من الأنبياء. بل وإن صلاة الأنبياء قبل رسول الله ﷺ كان بها ركوع وسجود ودعاء وتوبة؛ وفي بعضها يذكر القرآن تفاصيل دقيقة فيذكر نداء زكريا الخفي وقيام مريم في محرابها، الخ.. وقد حاول رسول الله ﷺ أن يقرب هذه الفكرة في أدق تفاصيل الصلاة إذ قال: إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا بِتَعْجِيلِ فِطْرِنا، وَتَأْخِيرِ سُحُورِنا، وَوَضَعِ أيمَانِنَا عَلَى شمائِلِنا فِي الصَّلَاةِ "(الطبراني، 1994، رقم 11485؛ الألباني، 1995). وتحدث عن أنه رأى موسى قائما يصلي في قبره (مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى، رقم 2375)، وعن صلاة داوود وأفضليتها (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، رقم 3237؛ مسلم، صحيح مسلم،

كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر، رقم: 1159)، وعن إمامته للأنبياء في المسجد الأقصى (مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال، رقم 172). بل وذكر أيضا أن الأنبياء كانوا يتوضؤون على الهيئة نفسها التي توضأ بها رسول الله ﷺ، حيث يروي الصحابي أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ "تَوَضَّأَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا فَقَالَ: هَذَا وُضُوئِي وَوُضُوءُ الْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِي" (ابن ماجه، سنن ابن ماجه، رقم 420).

فالآيات التي تتحدث عن الصلاة في القرآن الكريم تعيدها إلى أوائل الأنبياء، فعند الحديث عن إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب يذكر سبحانه أنه أوحى إليهم إقامة الصلاة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾- سورة الأنبياء: (21: 73)، فقد تحدث عن عبادتهم وأمرهم بإقامة الصلاة. وأقدم ذكر لصلاة نبي من أنبياء الله في القرآن المكي تعود لصلاة داوود عليه السلام في سورة ص، حيث ذكر ركوعه؛ ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾- سورة ص: (38: 24؛ علي د.ت.). وفي سورة مريم المكية، وبعد سرد قصص عدد من الأنبياء وذكر مناقبهم، تأتي الآيات في آخرها لتجمع فضائلهم جميعًا في مشهد جامع، حيث يقول تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾- سورة مريم: (19: 58-59)؛ ويذكر الحموي مستدلا بهذه الآية "أن الصلاة كانت لازمة في جميع أديان الأنبياء عليهم السلام"، حتى من قبل إبراهيم (الحموي، د.ت.). فالآية تشير لسجود الأنبياء من لدن آدم واضاعة من أتى بعدهم للصلاة. واختلف أهل التأويل في معنى إضاعة الصلاة إن كان تركها كلية أو تضييعهم أوقاتها (الطبري، 2001).

هذا بالإضافة إلى الآيات الأخرى التي بينت ذلك عند ذكر أولي العزم من الرسل؛ مثل دعاء إبراهيم عليه السلام عند تركه إسماعيل وهاجر عليهم السلام عند بيت الله الحرام ﴿رَبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾- سورة إبراهيم: (14: 37). فكانت علة الإسكان -بذلك الوادي عند ذلك البيت- إقامة الصلاة (ابن عاشور، 1984)، قبل إعادة بناء إبراهيم عليه السلام وابنه للبيت. ومن ثم يدعوا إبراهيم عليه السلام دعاء آخر بعد أن رزقه الله بإسحاق قائلا ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىٓ ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾- سورة إبراهيم: (14: 40)؛ أي أن يكون مؤدّيا ما فرض الله عليّه من الصلاة -ومن ذريته- كما يذكر الطبري (2001). وزاد البغوي "ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها"(البغوي، 1420هـ). ويستجيب الله له إذ إن إسماعيل عليه السلام كان مقيما للصلاة بل وكان يحث أهله ويأمرهم بها ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۞ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾-سورة مريم: (19: 54-55).

وفي آيات أخرى مكية يذكر الله في كتابه الكريم أمره لموسى عليه السلام في أول ما أوحاه الله إليه في الواد المقدس عندما كلمه ربه؛ ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾- سورة طه: (20: 14)، فكان أول أمر لموسى أن يعبد ربه ويقيم الصلاة. ومن ثم قول موسى عليه السلام في نفس السياق بأن يشرك في أمر النبوة وتبليغ الرسالة أخاه هارون كي يعبدا الله سويا؛ ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾- سورة طه: (20:

33-34)، وذكر أهل التفسير أن المقصود من التسبيح والذكر هو الصلاة. كما وتُظهر الآية الكريمة أمر الله تعالى لموسى وأخيه وقومهما بإقامة الصلاة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾- سورة يونس: (10: 87). أي أمروا بأداء الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها (الطبري، 2001)، كما وبالآية ذكر للقبلة، وهو الذكر الوحيد لموضوع قبلة الأنبياء في القرآن، إلى جانب الإشارة إلى سجود السحرة لله تعالى حين أبطل سحرهم مؤمنين برب موسى وهارون. وعند ميلاد عيسى عليه السلام وحديثه في المهد ذكر القرآن الصلاة على لسانه قائلا ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾- سورة مريم: (19: 31)؛ فكان فرض الصلاة عليه ما دام على وجه الأرض. ويضيف الطبري: "يعنى المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ"(الطبري، 2001).

نرى من هذه الآيات أهمية الصلاة في القرآن المكي، وأتت الآيات المدنية لتأكيد هذه الآيات وذكر المزيد من التفاصيل عن عهد الله لإبراهيم وإسماعيل ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾- سورة البقرة: (2: 125)؛ فكان الأمر بتطهير البيت الحرام للعبادة والصلاة. وكذلك الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى يُصلى عنده ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾- سورة البقرة: (2: 125). وفي الآيات المدنية يرد مزيدٌ من التفصيل حول الصلاة؛ ففي قصة مريم عليها السلام المكية ذُكر احتجابها واعتكافها عن قومها شرقي المسجد وفي الآيات المدنية تفصل اعتكافها بأمر الله لها بالصلاة بركوعها وسجودها مع المصلين ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾- سورة آل عمران: (3: 43). وقد ذكر أنه عُبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنها أشرف أركان الصلاة (البع، 2008).

بل وأكدت الآيات المكية بأن الأتباع الصادقون للأنبياء كانوا يصلون أيضا بصلاة الأنبياء، ففي سورة الإسراء إشارة إلى سجودهم إذا سمعوا ما أنزل الله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾- سورة الإسراء: (17: 107). وقد ذكر أهل التفسير أن المقصود بالذين أوتوا العلم هم مؤمنو أهل الكتابين (الطبري، 2001). بل وقد ذكر الله سبحانه أنه أخذ من بني إسرائيل ميثاقا فيه إقامة الصلاة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾- سورة البقرة: (2: 83)، وتشير الآية إلى أن كثيرًا منهم أعرض عن أوامر الله هذه إلا قليلا من أهل الكتاب، ومدح من تمسك بأوامر الله؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾- سورة الأعراف: (7: 170).

كما وذكرت عبادة بعض الأقوام لغير الله من أصنام وكذلك كواكب وغيرها. وخص القرآن قوم سبأ وقصة الهدهد إذ قال ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾- سورة النمل: (27: 24-25). فذكر عبادة بعض الأقوام وسجودهم للشمس وفي آية أخرى ذكر لسجود بعض الناس للقمر وأمره سبحانه بأن تكون العبادة خالصة له فهو خالق كل شيء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾- سورة فصلت: (41: 37).

ففي هذا نرى أن الصلاة كانت مشروعة بشكلها وأشراطها قبل بعثة رسول الله ﷺ وانما أتى رسول الله سائرا على خطى من سبقه من الأنبياء مُتَمِمًا لما بدأوا به من عبادة الله الواحد الأحد منذ آلاف السنين.

قبلة الأنبياء

للصلاة أركان وواجبات لا تصح الصلاة إلا بها، وأهمها القيام والركوع والسجود. وهذه الأركان المذكورة في صلاة الأنبياء تلزم المُصلي أن يتوجه بوجهه إلى اتجاه وقبلة معينة. ويذكر علماء المسلمين بأن استقبال جهة القبلة شرط من شروط صحة الصلاة. ويذكر شهاب الدين الحموي الحنفي أن قبلة الأنبياء ابتداء كانت الكعبة:

"إذ كانوا يسجدون لله فالسجود لا بد له من قبلة فلو كانت قبلة شيت وادريس ونوح موضعا آخر سوى القبلة لبطل قوله إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ فدل ذلك على أن قبلة أولئك الأنبياء هي الكعبة" (الحموي د.ت.،ص7).

لكن القرآن لم يذكر صراحة قِبلة من سبق من الأنبياء، لكنه ذكر –في الفترة المدنية– أن القبلة التي كان عليها محمد ﷺ كانت اختيارا ربانيا ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾– سورة البقرة: (2: 143) وأمر القبلة وتغييره لم يكن بالأمر السهل في الفترة المدنية لذلك يخصص القرآن الكثير من الآيات لمناقشة الأمر. ولو كان هناك حادث مشابه في حياة الرسول ﷺ قبل هذه الحادثة –كما يدعي بعض العلماء في قولهم بأنّ القبلة كانت في الأصل هي الكعبة في بداية الدعوة المحمدية ثم انتقلت لبيت المقدس، ثم عادت للكعبة بعد الهجرة بثمانية عشر شهرا– لفصَّل القرآن لها حيزا أو على الأقل لتم ذكرها في الحديث الشريف أو كتب السير. على كل الأحوال ليس أمر تحويل القبلة بالأمر العارض ويذكر القرآن آية واحدة تذكر إشارة للقبلة في زمن موسى عليه السلام ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾– سورة يونس: (10: 87)، وهذه الآية تدل كما يذكر القرطبي (1964) على أن القبلة في الصلاة كانت شرعًا لموسى عليه السلام، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة. وفي هذه الآية تشعب المفسرون فمنهم من قال إن البيوت هي القبلة أي المساجد وقال آخرون بل كان الأمر بأن يجعلوا بيوتهم قِبَل القبلة أي باتجاه بيت المقدس (القرطبي، 1964) أو مكة (الطبري، 2001؛ ابن كثير، 1968؛ القرطبي، 1964؛ الرازي، 1986)، وظاهر لفظ القرآن لا يدلُّ على تعيينها (الرازي، 1986). ويذكر ابن عاشور:

"واضطرب المفسرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذٍ. فقيل: أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلون فيها ... وهذا بعيد لأن الله علم أن بني إسرائيل مفارقون مصر قريباً بإذنه... وقوله: ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة" (ابن عاشور، 1984، ج11، ص 265-266).

ومن الممكن أن تكون البيوت هاهنا بمعنى مساجدكم، كما في آيات استخدمت كلمة "بيت" (سورة إبراهيم 14: 37؛ البقرة 2: 127، 158؛ آل عمران 3: 96-97؛ المائدة 5: 2، 97؛ الأنفال 8: 35) للإشارة للكعبة كبيت الله، أو لأي مسجد ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾- سورة النور: (24: 36).

واختلف علماء المسلمين في قبلة الأنبياء فمنهم من قال إنها مكة وجزموا بها على قول إن "الكعبة قبلة الأنبياء كلهم "(السيوطي، 1982). ومنهم من قال بيت المقدس، وجزم بها بما روي عن الزهري أنه قال: "لم يبعث الله منذ هبط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض نبيا إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس"(الحلبي، 1427هـ؛ العليمي، 1999). ويذكر البعض أن القبلة كانت متحركة في عهد موسى عليه السلام وكانوا يصلون باتجاه قبة الزمان التي كانت معهم في التيه، وبعد موسى وهارون دخل بها يوشع بن نون ونصبها على صخرة بيت المقدس فاستقرت القبلة على ذاك الاتجاه (ابن كثير، 1968). وربما في الرأي الأخير لابن كثير الصواب؛ فالقبلة منذ زمن آدم عليه السلام كانت للكعبة إلى زمن موسى عليه السلام ثم أصبحت القبلة بعد موسى –من عهد يوشع بن نون– إلى بيت المقدس واستقر الأمر على ذلك فكانت قبلة الأنبياء إلى رسول الله ﷺ.

ولم تذكر القبلة في القرآن إلا عند تحويلها في زمن رسول الله ﷺ والذكر الثاني كان لزمن موسى عليه السلام، وهذه الإشارة القرآنية تجعلنا نرجح أن القبلة من زمن آدم عليه السلام مرورا بإبراهيم وذريته عليهم السلام كانت قبلتهم للكعبة المشرفة ومن ثم في الزمن بعد موسى عليه السلام كان تحويل القبلة إلى بيت المقدس، ويشير إلى هذا الرأي الحموي في كتابه "تحفة الأكياس في تفسير قوله تعالى إن أول بيت وضع للناس". ويؤكد ذلك أن أساسات المسجد الأقصى العتيقة قد بنيت باتجاه الكعبة المشرفة كما يحاجج هيثم الرطروط وأثبت بأن باني المسجدين واحد، بناء على التطابق المعماري في الشكل وكذلك الزوايا (الرطروط، 2005). ويدلل هذا الكشف وتؤكد الآثار بأن المسجد الأقصى كان موجودا قبل زمن سليمان عليه السلام بل وقبل زمن موسى عليه السلام لأن القبلة قَبل زمنهم كانت باتجاه الكعبة وتغيرت فقط بعد موسى عليه السلام باتجاه بيت المقدس. لذا فهذا دليل مادي على كون القبلة كانت منذ بدء الخليقة باتجاه الكعبة، بما في ذلك بناء المسجد الأقصى كثاني مسجد على الأرض باتجاهها ولم تتغير إلا في زمن موسى عليه السلام حوالي 1200 ق.م.

قبلة رسول الله وأصحابه

كما أسلفنا آنفا بأن النبي ﷺ منذ بداية البعثة سنة 610م/13ق.هـ قد أُمر بالصلاة كما أمر الأنبياء من قبله بالصلاة بأركانها من قيام وركوع وسجود. بل وبعد ذكر الله سبحانه في سورة الأنعام المكية، لأسماء أغلب الأنبياء (18 من 25) وأشار لهم جميعا بالإشارة إلى آبائهم وذرياتهم واخوانهم، أمر الله رسوله بأن يقتدي بهم؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾- سورة الأنعام: (6: 90)، ومن هداهم إقامة الصلاة. وهذا الأمر تلقائيا فيه توجه باتجاه معين لا محالة، وقد أمر الله النبي وأصحابه –في آية مكية النزول– بتوجيه وجوههم في كل صلاة إلى القبلة؛ ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾- سورة الأعراف: (7: 29). وفي هذه السورة المكية بها فكرة القبلة واضحة حيث الأمر بتوجيه الوجه في كل صلاة

–إلى القبلة– بالإضافة للمعاني الأخرى من معاني التوحيد وإخلاص العبادة لله. ويروي ذلك الطبري عن ابن زيد أن المعنى في قوله سبحانه (وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) أي "أقيموها للقبلة، هذه القبلة التي أمركم الله بها"(الطبري، 2001). بل وذكرت الآية المسجد؛ "أَيْ تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ إِلَى الْقِبْلَةِ... عند كل مسجد أي في أي مسجد كنتم"(القرطبي، 1964).

ولم يختلف أي من أهل العلم أن قبلة رسول الله بعد الهجرة وهو في المدينة كانت لبيت المقدس (الرابي، 2009)، لما ورد في هذا الأمر الكثير من الأحاديث الصحيحة والنقاشات الطويلة حول القبلة وتغيرها في الفترة المدنية، الأمر الذي شهده الكثير من الصحابة. لكن اختلف العلماء في قبلة رسول الله قبل الهجرة فمنهم من قال إنها كانت الكعبة ابتداء ثم بيت المقدس ثم الكعبة مرة أخرى بعد الهجرة؛ ولو كان الامر كذلك لكان وَقعُ التغيير لمرتين كبير على المسلمين والكفار (الرابي، 2009). فتغيير القبلة في الفترة المدنية من بيت المقدس إلى مكة كان سبب نقاش وخلاف كبير بين المسلمين واليهود والمنافقين وكفار مكة، بل وأحدث هزة عنيفة استغلها المشككون كما يذكر الشعراوي (1997). ولو كان هناك تغيير من مكة لبيت المقدس لكان وقعها أكبر عند أهل مكة ولذكرها المحدثون وأهل السير ولربما ذكرت في القرآن. وسبب الاختلاف في المسألة بعض الروايات التي تذكر أن رسول الله ﷺ صلى في بداية الفترة المكية حيث لم يكن مسلم إلا ثلاث —رسول الله وزوجه خديجة وعلي بن أبي طالب– كالذي يرويه الحاكم (1990، 201/3، رقم 4842). وتزيد بعض الروايات أنه صلى عند الكعبة أو باتجاهها كالذي يرويه الطبري (2001) وغيره. يعلق فادي الرابي على هذه المسألة، أن رسول الله في هذه الحادثة ربما اتجه لبيت المقدس واضعا الكعبة بين يديه –كما في رواية أخرى– وبما أن الراوي هنا لم يكن مسلما حينئذ والرواية لا تذكر أن الكعبة كانت القبلة فلا يمكن الجزم من هذه الرواية (الرابي، 2009). هذا بالإضافة إلى أن الرواية الصحيحة الوحيدة في هذه الحادثة والتي يرويها الحاكم النيسابوري لا تذكر اتجاهه للكعبة ولا أنه صلى عندها، فقط تذكر أمر الصلاة. كما ويستدل البعض برواية عند البخاري: "بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا" (البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم 3856). وهذه الرواية تذكر أن رسول الله كان في الحجر ولا تذكر قِبلة له، وأغلب الحجر أصلا جزء من الكعبة، فلو صلى الإنسان بها ليس بها قبلة. ويضيف الرابي ربما كان سبب تهجم عقبة بن أبي معيط على رسول الله ﷺ أنه صلى معطيا الكعبة ظهره فأثار ذلك غضبهم (الرابي، 2009). ويجمل الأزرقي الأمر بأن رسول الله: "أقام بمكة بعد نزول جبريل عليه السلام ثلاثة عشرة سنة... وكان يصلي إلى بيت المقدس مدة إقامته بمكة"(الأزرقي ب.ت.). لذا فيغلب الظن أن قبلته لبيت المقدس جعلت مشركي مكة يظنون أنه يستخف بالكعبة.

وقد اختلف بعض أهل العلم إن كان اتجاهه لبيت المقدس برأي من رسول الله أو بوحي من الله؛ "وقال الجمهور: بل كان أمر قبلة بيت المقدس بوحي غير متلو في مكة" (ابن عطية 1422هـ)، ورأي جمهور العلماء هذا يؤكد على النقاش السابق. وفي هذه المسألة ليس هناك إلا حديث واحد صريح –إسناده صحيح على شرط الشيخين– يؤكد هذا الأمر، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ بِمَكَّةَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ،

وَالْكَعْبَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَبَعْدَ مَا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ صُرِفَ إِلَى الْكَعْبَةِ" (ابن حنبل، مسند أحمد، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس، رقم 2991). فهذا يدل على أن الصلاة في مكة منذ ابتداءها كانت باتجاه بيت المقدس وكان رسول الله يجتهد ليجمع بين القبلتين بين بيت المقدس والكعبة. لكن هذا ليس ممكنا إلا من ناحية واحدة جغرافيا وهي بين الركنين اليماني والأسود، كما ذكر أهل العلم، فلو صلى الإنسان ثَمَّ إذ كانت قبلته بيت المقدس والكعبة بين يديه. لكن هذا الأمر لم يكن ممكنا لرسول الله في كل وقت، فصلاة النبي في شعب أبي طالب –شرقي مكة– لفترة ثلاث سنوات لم تسمح له بالجمع بين القبلتين، وكذا بيت الأرقم على الصفا وغيرها من الأماكن في مكة وخلال رحلته إلى الطائف (الرابي، 2009). لذا فأصل القبلة هي المسجد الأقصى يتوجه إليها رسول الله ﷺ في كل صلاته، وكذلك أصحابه.

بل إن قبلة الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة –في بداية البعثة– كانت وِجَهَ بيت المقدس كما يناقش المسألة فقهيا ابن حزم الأندلسي (1988) ومن المعاصرين رائد فتحي جبارين (2006) والرابي (2009)، وخصوصا أن أمر تحويل القبلة لم يصلهم خبره وهم في الحبشة فبقيت صلاتهم باتجاه بيت المقدس لفترة أطول من أهل المدينة من المهاجرين والأنصار. بل ويذكر قتادة أن الآية 115 في سورة البقرة:

"نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: كَيْفَ نُصَلِّي عَلَى رَجُلٍ مَاتَ؟ وَهُوَ يُصَلِّي لِغَيْرِ قِبْلَتِنَا، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ– وَاسْمُهُ أَصْحَمَةُ وَهُوَ بِالْعَرَبِيَّةِ عَطِيَّةُ– يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى مَاتَ، وَقَدْ صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَنَزَلَ فِيهِ: "وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ" فَكَانَ هَذَا عُذْرًا لِلنَّجَاشِيِّ، وَكَانَتْ صَلَاةُ النَّبِيِّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ" (القرطبي 1964م، ج2، ص81).

وهذا يدلل على أن بعض المسلمين صلوا باتجاه بيت المقدس ما يقارب 22 عاماً. وهناك أحاديث أخرى –بعد حادثتي الإسراء وبيعة العقبة وقبل هجرة النبي للمدينة– تذكر صلاة أهل يثرب باتجاه بيت المقدس كرواية البراء بن معرور الذي خالف قومه في أمر القبلة فقالوا له "وَمَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ، وَمَا كُنَّا نُصَلِّي إِلَى غَيْرِ قِبْلَتِهِ (ابن حبان، 2012، ج1، ص232–234). وهذا نص صريح آخر في المسألة، بأنه لا خلاف بأن رسول الله قبلته كانت للشام، أي بيت المقدس. وعند لقاء البراء رسول الله ﷺ أمره رسول الله بالصلاة باتجاه بيت المقدس إذ قال له: "قَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا"... فَرَجَعَ الْبَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ" (ابن حبان 2012، 223/1، رقم 429). بل وبعض الروايات تذكر بناء مسجد قباء قبل الهجرة باتجاه بيت المقدس، حيث قدم رسول الله ﷺ قباء وقد بنى أصحابه مسجدا يصلّون فيه إلى بيت المقدس، فلمّا قدم صلّى بهم إليه، ولم يحدث في المسجد شيئا (ابن شبة، 1979). وهذه الرواية تدلل على أن أساسات البناء بنيت باتجاه المسجد الأقصى وصلى به المسلمون قبل هجرة الرسول للمدينة. وعند قدوم رسول الله ﷺ بنى المساجد بنفس الاتجاه إلى بيت المقدس.

ويرى الإمام السيوطي (1982) أن الصحيح الذي أطبق عليه الأكثرون أنه لم يصل بمكة إلا لبيت المقدس. وهذا رأي ابن قيم الجوزية، فيذكر من سبقه من الأنبياء، فالمسيح إنما كان يصلى إلى قبلة بيت المقدس، وهي قبلة

الأنبياء قبله، وإليها كان يصلى النبي ﷺ مدة مقامه بمكة، وبعد هجرته ثمانية عشر شهرا، ثم نقله الله تعالى إلى قِبْلة أبيه إبراهيم عليه السلام (ابن قيم الجوزية، 2019). وقد أوجز هذه المسألة قائلا:

"وَتأمل الْحِكْمَة الباهرة فِي شرع الصَّلَاة أَولا إِلَى بَيت الْمُقَدّس إِذْ كَانَت قبْلَة الْأَنْبِيَاء فَبعث بِمَا بعث بِهِ الرُّسُل وَبِمَا يعرفهُ أهل الْكتاب وَكَانَ اسْتِقْبَال بَيت الْمُقَدّس مقررا لنبوته وَأَنه بعث بِمَا بعث بِهِ الْأَنْبِيَاء قبله وَإِن دَعوته هِيَ دَعْوَة الرُّسُل بِعَينهَا وَلَيْسَ بدعا من الرُّسُل وَلَا مُخَالفا لَهُم بل مُصدقا لَهُم مُؤمنا بهم" (ابن قيم الجوزية 2019م، ج2، ص932).

وهذا رأي إمام الحرمين الجويني (2007) والإمام الغزالي أن رَسُول الله ﷺ كان يسْتَقْبل الصَّخْرَة من بَيت الْمُقَدّس مُدَّة مقَامه بِمَكَّة، وَهِي قبْلَة الْأَنْبِيَاء (الغزالي، 1417هـ) ورأي غيرهم من أهل العلم.

وربما الحكمة في ذلك، بالإضافة إلى كونها قبلة الأنبياء، أن الكعبة كانت محاطة بالأصنام، فكان أدعى لترسيخ التوحيد في قلوب الصحابة، وكي لا يلتبس الأمر على أهل مكة، أن تكون القبلة إلى البيت المقدس، المطهر من الأصنام. فبذلك تكون رسالة التوحيد واضحة لا لبس فيها. وقد شق ذلك على أهل مكة، الذين كما يذكر سيد قطب (1412هـ) في الظلال، مع تعظيمهم للبيت كانوا يعدونه عنوان مجدهم القومي. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه– فترة– إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية. ويضيف الشعراوي (1997) في هذه المسألة: "ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم. ووضع الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها. فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة... والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس". ويجمل ذلك محمد عزت دروزة (1383هـ) أن التوجه إلى "سمت المسجد الأقصى ليتميز المسلمون عن المشركين الذين كانوا يقومون بطقوسهم الوثنية حول الكعبة"، وأضحت الكعبة في نهاية البعثة المحمدية "ركنا مفروضا من أركان الإسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها".

ويبدو أن توجه الرسول لبيت المقدس أزعج قريش، وبدأوا بالنيل الشديد من رسول الله بعد أن توفي عمه الذي كان يحميه من أذاهم، فقد ذكر رسول الله ﷺ أن قريشا لم تنل منه شيئا يكرهه حتى مات أبو طالب (ابن هشام، 1955؛ الخطابي، 1982). ففي يوم ورسول الله ﷺ يصلي في ظل الكعبة نادى أبو جهل في ناديه: " أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ" (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة، رقم 237). وفي رواية أخرى عند البخاري يروي أن عقبة بن أبي معيط ورسول الله يصلي في حجر الكعبة، أي في الحطيم، وعلى الأغلب أنه كان قد أعطى ظهره للكعبة واستقبل بيت المقدِس في قبلته، كما يرجح فادي الرابي (2009)؛ وفي الرواية: "بينما النبي ﷺ يصلي في

حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا"(البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم 3643). ويبدوا أن رسول الله كان يتحرى المكان الذي لا يكون بينه وبين القبلة أصنام، كصلاته في حجر إسماعيل وعند الركن اليماني.

وبذلك فإن قبلة رسول الله ﷺ طوال الفترة المكية كانت باتجاه بيت المقدس في الشام، ومن أسلم وخرج من مكة، إلى الحبشة أو المدينة أو غيرها من المدن، بقي على قبلة بيت المقدس حتى هاجر والتحق برسول الله بالمدينة. ومثال على ذلك أبو ذر الغفاري وجعفر بن أبي طالب ومهاجرو الحبشة بالإضافة إلى النجاشي. فارتبطت بيت المقدس بأرواح أصحاب النبي ﷺ وتعلقوا بها، بل وكان لهم فضل حيث فسر بعض أهل التأويل آية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، هم الذين صلوا للقبلتين (الطبري، 2001).

تعلق أرواح الصحابة ببيت المقدس

في بداية البعثة المحمدية حيث لم يكن يربط أصحاب رسول الله ببيت المقدس إلا الصلاة، فلم تكن قصص الأنبياء قد بدأت بالنزول بعد. وكان أصحاب النبي ابتداء يصلون في الشعاب كما يروي ابن إسحاق:

> "كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلًا من المشركين بلَحي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام" (ابن هشام 1955، ج1، ص342).

وبعد هذه الحادثة انتقلوا إلى دار الأرقم سراً فأصبحت مركزًا للدعوة يتجمع فيه المسلمون لصلاتهم وللقياهم برسول الله. وتذكر أحد الأحاديث الصحيحة تفصيلا لعلاقة الصحابة ببيت المقدس في تلك الفترة المبكرة الحديث يرويه الأرقم بن أبي الأرقم أحد أوائل الصحابة إسلاما؛ سابع سبعة وقيل عشرة. والقصة يُذكر بها ارتباطهم ببيت المقدس بعد إسلام عمر بن الخطاب، الذي كان إسلامه فتحا. لكن قبل سرد القصة يجب فهم سياق إسلام عمر، الذي عندما أسلم تحدى تخفي المسلمين في بيت الأرقم حيث سأل رسول الله بعد إسلامه: أنحن على حقّ أم باطل؟ فقال له رسول الله ﷺ: بل على حقّ، فقال عمر: ففيم التخفي إذن؟ وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: "وَلَقَدْ كُنَّا مَا نُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ قَاتَلَ قُرَيْشًا حَتَّى صَلَّى عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ"(ابن هشام، 1955). ويروي ابن هشام رواية عطاء ومجاهد عن إسلام عمر التي يرويها عمر بنفسه، أنه خرج ليطوف بالكعبة فإذا رسول الله: "قَائِمٌ يُصَلِّي، وَكَانَ إِذَا صَلَّى اسْتَقْبَلَ الشَّامَ [أي بيت المقدس]، وَجَعَلَ الْكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ، وَكَانَ مُصَلَّاهُ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ: الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ"(ابن هشام 1955). وفي هذا السياق تأتي رواية الأرقم، الذي كانت داره التي على الصفا يجتمع بها رسول الله ﷺ مع الصحابة في بداية الدعوة، حتى تكاملوا عدد الصحابة أربعين رجلاً، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب، فلما تكاملوا أربعين يذكر الأرقم: "فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِأُوَدِّعَهُ، وَأَرَدْتُ الْخُرُوجَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَيْنَ تُرِيدُ؟" قُلْتُ: بَيْتَ

الْمَقْدِسِ، قَالَ: "وَمَا يُخْرِجُكَ إِلَيْهِ؟ أَفِي تِجَارَةٍ؟" قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ أُصَلِّي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "صَلَاةٌ هَا هُنَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ ثَمَّ (الحاكم 1990، 120/7، رقم 6254). هذه الرواية توضح مدى تعلق أحد أوائل الصحابة ببيت المقدس وفي فترة مبكرة من البعثة، وعزم الأرقم على الذهاب للصلاة في بيت المقدس. بالإضافة إلى ربطه عزة المسلمين ببيت المقدس، وذلك بأن التخفي في بيته لم يعد له سبب، فبإسلام عمر أضحى الصحابة يصلون بلا خوف. ومع ذلك لم يُحبِّذ رسول الله ﷺ ذهابه في تلك الفترة، حين كانت بيت المقدس في قلب الصراع البيزنطي–الفارسي، وذكّره بفضل الصلاة في المسجد الحرام حيث كانوا مقيمين.

هذه الرواية تفتح العديد من الأسئلة، وخصوصا ما الذي علق روح الأرقم ببيت المقدس وما الذي دفعه لتجهيز نفسه وشد رحاله والقدوم لتوديع رسول الله قبل انطلاقه في تلك الرحلة، لولا أن ثناه عنها رسول الله لحكمة ما. لم يكن هناك أمر ربط أوائل الصحابة ببيت المقدس في تلك الفترة سوى أمر القبلة، وكانت الصلاة كما أسلفنا ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل الغروب بالإضافة إلى قيام الليل الذي كان فرضاً في الفترة المبكرة. فصلاة الأرقم ستّ أو سبع ساعاتٍ كل ليلة باتجاه بيت المقدس أثارت في روحه شوقًا وحنينًا إلى مكانٍ لم يره بعد، ذلك الصحابي الجليل. وتعبّر رواية الأرقم عن هذا الشوق الروحي لبيت المقدس؛ إذ لم يسعَ إلى زيارته للتجارة أو السياحة، وإنما قصد الصلاة فيه، لما للقبلة من مكانة راسخة في وجدانه. لذلك الصحابة الذين تربوا على التوجه نحو بيت المقدس في صلاتهم الأولى، حملوا في قلوبهم ارتباطًا وجدانيًا وتاريخيًا بهذا المكان. وهذه الرواية تكشف عن الحنين الروحي الذي حمله الصحابة لبيت المقدس. لذا كانت القبلة بوابة الارتباط، لكنها لم تكن مجرد اتجاه، بل جسرًا بين ماضي الأنبياء والحاضر المحمدي، وهو ما جعل بيت المقدس حاضرًا في وجدان الصحابة حتى قبل أن تطأه أقدامهم. ويمكن تقريب ذلك بالشعور الذي يعيشه المسلمون في أنحاء المعمورة، وهم يؤدون الصلوات الخمس يوميًا باتجاه بيت الله العتيق؛ حيث تهوي الأفئدة إليه، وتتشوّق العين إلى أن تتكحل برؤيته.

لم يكن أمر الصلاة والارتباط بالقبلة مرتبط فقط بالأرقم بل بجميع الصحابة الأوائل، كخديجة وزيد وعلي وأبي بكر رضي الله عنهم. فأبو بكر الصديق طور هذه العلاقة من رابط روحي إلى فعل، فكان أول من أسس مسجدا في الفترة المكية، فقط روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن والدها بنى مسجدا في فناء بيته بمكة، حيث كانت صلاتان في اليوم بالإضافة لقيام الليل مفروضة على المسلمين: فتذكر عَائِشَةَ رضي الله عنها: "لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وهُما يَدِينَانِ الدِّينَ، ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فيه رَسولُ اللَّهِ ﷺ، طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وعَشِيَّةً، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بفِنَاءِ دَارِهِ، فَكانَ يُصَلِّي فيه ويَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَقِفُ عليه نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ منه ويَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وكانَ أبو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ، فأفْزَعَ ذلكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ"(البخاري، صحيح البخاري، كتاب أبواب المساجد، باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس، رقم 464). ويحاجج أحمد دوام المطيع في رسالة الماجستير، علاقة أبي بكر الصديق وإسهاماته في الفتح الأول لبيت المقدس، بأن أبا بكر، في بداية الدعوة الجهرية، بنى أول مسجد في فناء داره، وهو ما أثار انتباه مشركي مكة. فكان أبوبكر يحول إيمانه من النظرية إلى التطبيق وينشر الإسلام من خلال أعماله كعبادته العلنية في صلاته وتلاوته للقرآن. ويضيف بأن فكرة أبي بكر بناء المسجد عكست صلاته اليومية تجاه بيت المقدس (دوام

المطيع، 2022). وكانت شخصيته فريدة ففعل ما لم يفعله مسلم آخر من خلال بناء مكان محدد للصلاة لزيادة ارتباطه بخالقه وعلاقته الروحية ببيت المقدس. وروى أبو داود والترمذي عن عائشة قالت: "أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظّف وتطيّب" (أبو داوود، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور، رقم 455؛ الترمذي، سنن الترمذي، كتاب أبواب السفر، باب ما ذكر في تطييب المساجد، رقم 594). وهذا ما قام به الصديق، فكان أول من طبق هذا الأمر. ومع أن جميع أصحاب النبي لديهم نفس الارتباط ببيت المقدس من خلال صلاتهم، إلا أن أبا بكر الصديق أضاف بصمة إضافية في علاقته ببيت المقدس. فقد نقل هذه العلاقة الروحية مع بيت المقدس إلى مرحلة متطورة، حيث كان كذلك في كل المسائل الإيمانية كالإسراء والمعراج وأول نبوءة في القرآن. وقد زادت رحلة الإسراء ارتباط الصحابة ببيت المقدس حيث كانت هي بوابة السماء لرسول الله التي عرج منها إلى السماء، فأضحت صلواتهم الخمس باتجاه بيت المقدس تعرج بأرواحهم وتقربها إلى خالقها. وبما أن "الصلاة معراج المؤمن" فكانت هدية الصلوات الخمس التي أتت لهم عن طريق بيت المقدس والتي يتوجهون إليها في صلاتهم، معراجا لأرواحهم ورابطا وثيقا لهم بقبلتهم الأولى، مانحة لهم إدراك مفهومي المعجزة والأمل.

ويغلب أن أمر الصلاة ربط أوائل الصحابة ببيت المقدس غير المكيين ببيت المقدس قبل الاسراء والمعراج، فقد أسلم في بداية الفترة المكية عدد من الصحابة من خارج مكة، كأبي ذر الغفاري وفي رواية تميم بن أوس الداري من بيت المقدس، بالإضافة لمن هاجر وتركوا مكة إلى الحبشة وبقي ارتباطهم بقبلتهم من تلك الديار. فإسلام أبي ذر مذكور في كتب الصحاح، أما إسلام تميم فاختلفت الروايات فيما إن أسلم في مكة أو المدينة. أما أبو ذر فهو من قبيلة غفار التي كانت تقطن وادي الصفراء بالقرب من يثرب على بعد 120كم منها في الطريق إلى بدر. وقد أسلم أبو ذر الغفاري في مكة في فترة مبكرة ويروى أنه كان خامس الرجال إسلاما، وكما في الصحيحين، سأل أبو ذر رسول الله عن "أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلَ؟ قالَ: المَسْجِدُ الحَرَامُ. قُلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قالَ: ثُمَّ المَسْجِدُ الأَقْصَى. قُلتُ: كَمْ كانَ بيْنَهُمَا؟ قالَ: أَرْبَعُونَ، ثُمَّ قالَ: حَيْثُما أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، والأَرْضُ لكَ مَسْجِدٌ" (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ﴿يزفون﴾: النسلان في المشي، رقم 3186؛ مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم 520). ويبدو من هذا الحديث أنه، بعد أن فَقِه أمر الصلاة وصلى باتجاه بيت المقدس مع الصحابة، دفعه الفضول إلى السؤال عن قبلته، فسؤاله ذلك يدل على ارتباط الأمر باتجاهه إليها في صلاته. وجواب النبي ﷺ أشار إلى وجود مسجدين، ويرجَّح أن ذلك كان قبل بناء المسجد النبوي بعد الهجرة. ثم أمره النبي ﷺ بالرجوع إلى بلاده حتى يسمع بخبر بهجرته، وكان مَقدم أبي ذر على النبي في المدينة المنورة بعد غزوة أحد. وقد انتشر الإسلام مبكرًا في قبيلة غفار؛ فبعد إسلام أبي ذر أسلمت نصف قبيلته معه، وأقام بينهم يقيم شعائر الإسلام، يؤمهم كبيرهم إيماء بن رحضة الغفاري (ابن حجر العسقلاني، 1995). وتدل الرواية، كما في صحيح مسلم، على أنهم كانوا يقيمون شعائر الإسلام من صلاة وغيرها، بل وكان يؤمهم في الصلاة سيد قبيلة غفار. ولم تذكر لنا الروايات إن كانوا بنوا مسجدًا أم لا، لكنها تؤكد أنهم كانوا يصلون جماعة ولهم إمام، وهو ما يستلزم مكانًا مخصصًا وقبلة يتوجهون إليها.

وتروى رواية مشابهة إسلام تميم بن أوس الداري، الذي أتى من حبرون (الخليل) من الأرض المقدسة إلى رسول الله ﷺ وهو في مكة هو وستة نفر من قومه فأسلموا وطلبوا من رسول الله أن يقطعهم أرضهم في بيت المقدس ففعل. ويروي الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق اسلاهم في مكة من عدة طرق، ويذكر أن رسول الله بعد أن أوقف لهم أرض حبرون (الخليل) من بيت المقدس وأمرهم بأن يعودوا إلى بلادهم قائلا: "انصرفوا حتى تسمعوا بي قد هاجرت" (ابن عساكر، 1995). ويروى أن تميما شهد أحد وبعض الروايات تذكر بأنه شهد تبوك مع وفد من قومه وجدد له رسول الله ذاك العهد. على اختلاف الروايات يبدو أن إسلام تميم وأخيه وبعض قومه كان في فترة مبكرة، وقد عادوا إلى بلادهم في الأرض المقدسة وأقاموا الإسلام وبعد هجرة رسول الله كانوا يأتون إليه ويعودون إلى بلادهم، بل وكان تميم أول من أسرج مسجد رسول الله من زيت أتى به من الأرض المقدسة (ابن عبد البر 2019، 373/6)، بل وبنى لرسول الله منبرا (أبو داوود، سنن أبي داود، كتاب في تفريع أبواب الجمعة، باب موضع المنبر، رقم 1081)، ويغلب على الأمر أن هذا كله كان قبل غزوة رسول الله إلى تبوك على تخوم الشام. وهذا الأمر يدلل على أنه أول من طور في عمارة المسجد النبوي وأضاف إليها إضافات هامة أضحت جزء مهما من عمارة المساجد، وكونه نصرانيا وراهبا قبل اسلامه، أخذ مما كان يعرفه في العمارة وطور به المساجد وأقره على ذلك رسول الله. وبما أن إسلامه كان في أرض بعيدة عن رسول الله فالمرجح أيضا أنه كان له ولقومه مصلى يصلون به في أرضهم ببيت المقدس، كالصحابة في الحبشة. وبناء أبي بكر لمسجد في داره ربما ألهم غيره لبناء مصليات، وإن كانت بسيطة، في دورهم أو ديارهم. ونجد شواهد لذلك عند أهل يثرب قبل هجرة النبي ﷺ إليها.

بعد رحلة الإسراء أسلم ستة نفر من أهل يثرب خلال حجهم لمكة وعادوا إلى مدينتهم ودعوا قومهم إلى الإسلام حتى إذا كان العام المقبل خرج اثنا عشر رجلا منهم للقاء رسول الله في موسم الحج بعد أن فقهوا الإسلام وصلوا. وكان معهم البَرَاءُ بنُ مَعْرُوْرٍ، نقيب قومه بني سلمة، وفي الطريق عند ذي الحليفة قرر أن يصلي للكعبة وأشار بذلك على أصحابه قائلا: "يَا هَؤُلَاءِ، قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لَا أَدَعَ هَذِهِ الْبِنْيَةَ مِنِّي بِظَهْرٍ – يَعْنِي الْكَعْبَةَ – وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا. قَالَ: فَقُلْنَا: وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ يُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ [أي بيت المقدس]، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ. فَقَالَ: إِنِّي لَمُصَلِّي إِلَيْهَا. قَالَ: قُلْنَا لَهُ: لَكِنَّا لَا نَفْعَلُ. قَالَ: فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ، وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ. قَالَ: وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ، وَأَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى أَسْأَلَهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَإِنَّهُ وَاللهِ، قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلَافِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ. قَالَ: فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ –وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ– قَالَ: فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ، وَرَسُولُ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ، فَسَلَّمْنَا، ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ. قَالَ: فَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، وَقَدْ هَدَانِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْإِسْلَامِ، فَرَأَيْتُ أَنْ لَا أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ، لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا"؟ قَالَ: فَرَجَعَ الْبَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ ﷺ، فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ" (ابن حنبل، مسند أحمد، مسند المكيين، بقية حديث كعب بن مالك الأنصاري، رقم 15798). وهذه الرواية تثبت بأن قبلة الصحابة قبل الهجرة كانت لبيت المقدس وأن الأمر كان واضحا عند كل المسلمين في ذلك الزمان، بل وخالفوا

رئيسهم وسيدهم سيرا على سنة رسول الله ووافقهم رسول الله في ذلك. بل وفي هذه الرواية إشارة إلى أن رسول الله كان يعلم بأن القبلة ستتحول من البيت المقدس إلى البيت الحرام لذا أمر البراء بالعودة إلى قبلته والصلاة باتجاه بيت المقدس الآن، ففعل وأطاع رسول الله في ذلك. وهذه الرواية توضح ارتباط الصحابة بمقدساتهم، فلم يرد البراء أن يعطي ظهره للكعبة، وهذا من تعظيم شعائر الله.

وبعد بيعتهم لرسول الله في بيعة العقبة الأولى والتي كان بها أول المبايعين البراء بن معرور، أرسل رسول الله معهم مصعب بن عمير معلما، ليعلمهم الإسلام. وبنى أهل يثرب مسجدهم الأول قبل هجرة رسول الله إليهم، حيث بنوا مسجد قباء، كما يذكر ابن شبة (1979). وتم تأسيس أساساته وبنائه باتجاه بيت المقدس قبلة رسول الله. وعندما هاجر رسول الله صلى بهم في ذاك المسجد قبل بناء مسجده النبوي والذي أيضا بنيت أساساته باتجاه البيت المقدس وكذلك بقية مساجد المدينة التي بنيت في السنة الأولى بعد الهجرة.

ويمتد هذا الأمر لما يقارب المئة من الصحابة الذين هاجروا للحبشة وكانوا أيضا يصلون باتجاه بيت المقدس، وما زالت مساجدهم، كمسجد الصحابة في مدينة مصوع في أريتريا، تدل على أن قبلتها الأساسية تتجه باتجاه المسجد الأقصى، حيث بنيت قبل تغيير القبلة (المستودع الدعوي الرقمي، مسجد الصحابة)، وهناك "مسجد القبلتين" في الصومال (أحمد، 2024)، يقال بأنه ما زال يشير لقبلة بيت المقدس ومن ثم لمكة أيضا، بعد تحويل القبلة. وقد بقي المهاجرون إلى الحبشة على قِبلة بيت المقدس حتى بعد تغيير القبلة في المدينة في السنة الثانية للهجرة، بل ظلوا عليها مدة ست سنوات ونصف أخرى، أي إلى السنة الثامنة للهجرة، إذ لم يصلهم خبر تغيير القبلة إلا حين قدموا على رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر. كما ظل النجاشي على تلك القبلة حتى وفاته. وعندما صلى رسول الله على النجاشي صلاة الغائب في السنة التاسعة للهجرة اعترض بعض الصحابة قائلين "كيف نصلي على رجل مات؟ وهو يصلي لغير قبلتنا" (القرطبي، 1964؛ ابن تيمية، 2019). ويفصل ابن تيمية الأمر قائلا:

> "وقد ذكر عن عطاء وقتادة أن النجاشي كان يصلّي إلى بيت المقدس إلى أن مات. وقد مات بعد نسخ القبلة بسنين متعدِّدة. فلما صلَّى عليه النبيُّ ﷺ بقي في أنفس الناس لأنه كان يصلي إلى غير الكعبة، حتى أنزل الله هذه الآية [فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ]. وهذا –والله أعلم– لأنه قد كان بلغه أنَّ النبيَّ ﷺ يصلّي إلى بيت المقدس، فصلَّى إليه. ولهذا لم يصلِّ إلى المشرق الذي هو قبلة النصارى. ثم لم يبلغه خبرُ النسخ لبعد البلاد، فعُذِر بها، كما عُذِر أهل قباء وغيرهم؛ فإنَّ القبلة لما حُوِّلت لم يبلغ الخبر إلى من بمكة من المسلمين، ومن كان بأرض الحبشة من المهاجرين مثل جعفر وأصحابه، ومن كان قد أسلم ممن هو بعيد عن المدينة، إلى مدة طويلة أو قصيرة. ولم يأمر النبيُّ ﷺ أحدًا منهم بإعادة ما صلَّاه إلى بيت المقدس قبل علمه بالناسخ (ابن تيمية، 2019، ج2، ص559-560).

فبقي من أسلم من أهل الحبشة يصلون لبيت المقدس حتى أبلغوا بتغير القبلة بعد ذلك. ويروى أن ستة عشر صحابيًا ماتوا ودُفنوا في الحبشة، بالإضافة إلى النجاشي. ولم يكن أمر القبلة متعلقًا بالصلاة وإنشاء المساجد باتجاهها فحسب، بل كان من يموت من الصحابة يُدفن باتجاه القبلة. فيُروى أن البراء بن معرور أوصى بأن يُدفن

باتجاه الكعبة قبل موته، وقد مات قبل هجرة النبي ﷺ بشهر، أي قبل تحويل القبلة إلى مكة بأكثر من سنة ونصف. ويبدو أن ما أخبره به رسول الله ﷺ من أن القبلة ستتحول إلى الكعبة جعله يستشرف ذلك الأمر، فطلب دفنه باتجاهها. ويمكن الاستنتاج أن بقية من كان يموت من الصحابة في بداية الإسلام كانوا يُدفنون باتجاه قبلة بيت المقدس. ويضيف فادي الرابي في دراسته حول القبلة أن قبر خديجة رضي الله عنها ربما وُجِّه إلى بيت المقدس من خلال دراسة موقع القبر (الرابي، 2009)، وكذلك قبور الصحابة في المدينة قبل تغيير القبلة، باستثناء قبر البراء بن معرور الذي أوصى بدفنه باتجاه الكعبة لما عرفه من رسول الله ﷺ. ويمكن قياس الأمر على الصحابة في الحبشة وغيرهم ممن أسلموا وماتوا قبل تحويل القبلة، غير أن هذا الأمر يحتاج إلى دراسة معمقة في المصادر وكذلك في آثار قبورهم.

الخلاصة

تمثّل العلاقة بين المسلمين الأوائل وبيت المقدس محورًا روحيًّا متجذرًا في تكوينهم العقدي والوجداني، إذ اتخذ الصحابة المسجد الأقصى بوصلةً تعبديّةً توجهوا إليها في صلواتهم، ورسموا بها معالم أسس مساجدهم ومصلياتهم في مكة ويثرب والحبشة وبيت المقدس، حتى قبل فرض الصلوات الخمس. ولم يكن هذا التوجه مجرد امتثال شعائري، بل تعبيرًا عن انتماءٍ إلى رسالةٍ واحدةٍ تجمعهم بميراث أنبياء الله، وتتمثل في ديمومة القبلة التي ترمز إلى وحدة المبدأ؛ فأضحت بيت المقدس نقطة التقاء بين الماضي النبوي والحاضر الإيماني للصحابة. ومن الأبعاد التي تعزز مركزية بيت المقدس في التصور الإسلامي المبكر، ارتباطه بصلاة الأنبياء عليهم السلام، إذ إن العبادة كانت منذ بدء الخليقة غاية الخلق ومقصده. وقد كانت الصلاة مشروعة في الأمم السابقة، بأركانها الأساسية من قيام وركوع وسجود، مما يستلزم تحديد جهة وقبلة يتوجه إليها المصلي، وهو ما أكد عليه علماء المسلمين باعتباره شرطًا من شروط صحة الصلاة. وتوصلنا إلى أن القبلة كانت منذ عهد آدم عليه السلام باتجاه الكعبة، ثم تحولت في الزمن بعد موسى عليه السلام إلى بيت المقدس، واستقر الأمر على ذلك حتى بعثة النبي محمد ﷺ، الذي جاء متممًا لمسيرة الأنبياء في عبادة الله الواحد، لا مبتدعًا لشعيرة جديدة. وتشير الشواهد والأسس المعمارية الأثرية، كما في دراسة هيثم الرطروط، على أن المسجد الأقصى بُني باتجاه الكعبة، مما يشير إلى وحدة الباني ووحدة القبلة في أصلها، ويؤكد أن المسجد الأقصى كان قائمًا منذ بداية البشرية، وأن تحويل القبلة إلى بيت المقدس جاء لاحقًا. وهذا الكشف يضيف بعدًا ماديًا وتاريخيًا لفهم تطور القبلة في الرسالات السماوية، ويعزز فكرة أن القبلة نحو بيت المقدس كانت امتدادًا لتوجه الأنبياء بعد موسى، واستمرت حتى بعثة النبي ﷺ، الذي أعاد القبلة إلى أصلها في الكعبة بعد أربعة عشر عامًا ونصف من توجهه نحو المسجد الأقصى. كما أن القرآن المكي أشار مرارًا إلى المساجد والصلاة، وركّز على كيفية صلاة الأنبياء، مما يدل على أن شعائر الصلاة كانت حاضرة في الرسالة منذ بدايتها، وأن التوجه نحو بيت المقدس كان جزءًا من هذا الامتداد النبوي، الذي جسّده المسلمون الأوائل في عباداتهم، وربطهم بالأرض المباركة التي صلّى فيها الأنبياء، وساروا على نهجهم في التوجه والقيام بين يدي الله سبحانه وتعالى.

جعلت القبلة العلاقة ببيت المقدس مسألة ارتبطت بها الأرواح والأبدان ولاحقا القلوب والعقول والأذهان. فأصحاب رسول الله كانوا يحنون ويتوقون لرؤية قبلتهم التي كانوا يصلون إليها. ففي قصة الأرقم وتوقه للصلاة في المسجد الأقصى، تظهر أبعاد هذا الارتباط، حيث ارتبطت القبلة بعزة الإسلام وبدايات تحوّله من الاستضعاف إلى التمكين، مما عزّز حضورها في قلوب الصحابة ونفوسهم. فربط الأرقم تلك العِزة ببيت المقدس وإتيانه رسول الله ﷺ مودعا له قبل خروجه للمسجد الأقصى دليل صريح على تلك العلاقة الروحية. كما أظهرت الروايات استمرار الصحابة على القبلة الأولى في بلادٍ بعيدة لم يبلغها خبر التغيير، مما يعكس عمق الارتباط بالبيت المقدس كمنطلق للوقوف بين يدي الله سبحانه. فإنشاء الصحابة مساجدهم ومصلياتهم وتأسيس أسسها باتجاه بيت المقدس ومسجده الأقصى كما هو ثابت في يثرب، بل ويستأنس منه في بقية مصلياتهم في مكة والحبشة بل وفي الخليل بالأرض المقدسة، مما يجعل هذه الروابط أوسع بكثير من الدائرة في مكة والمدينة ومن كان يقطنها من المسلمين. فقد كان نحو مائة من الصحابة في الحبشة، ونصف قبيلة غفار على الإسلام، وكان تميم الداري في بيت المقدس مع أخيه وأمه على الإسلام، إضافة إلى غيرهم من المسلمين. وكانوا يحافظون على صلاتهم المكتوبة في حِلهم وترحالهم كما تعلموا من رسول الله حال إسلامهم. فكانت بيت المقدس لهم البوصلة التي يتحرونها كلما قاموا للوقوف بين يدي خالقهم سبحانه، حتى كانت رحلة الإسراء وفرضت عليهم الصلوات الخمس فزاد ارتباط من بمكة ببيت المقدس قبلتهم، فصلواتهم الخمس أتت عن طريق قبلتهم الأولى وكانت معراجا لأرواحهم.

فقد استمر المسلمون في العهد المكي وبدايات العهد المدني يؤدون الصلاة باتجاه المسجد الأقصى، أي ما يقارب ثلثي النبوة، فبعدما رسخ حُب بيت المقدِس في قلوب أصحاب رسول الله حان إعادة القِبلة إلى أصلِها، الكعبة. أما من كان خارج مكة فيبدو أنهم ظلوا على ما كانوا عليه من صلاتين في اليوم، إضافة إلى قيام الليل، حتى بلغهم خبر الصلوات الخمس. ويُرجَّح أن من كان بعيدًا لم يصل إليه خبرها أو خبر تغيير القبلة، كما في حال من كانوا في الحبشة. وتجلّت استمرارية القدسية في توصية رسول الله ﷺ بعد تغيير القِبلة بعدم استقبال بيت المقدس ببولٍ أو غائط، في تأكيد رمزي على مكانته المتعالية.

بل إنّ هذا الارتباط تخطّى حدود العبادة اليومية، وتعدّى هذا التعلق حدود الحياة إلى الموت، ليمتدّ إلى الجنائز ودفن من مات باتجاه بيت المقدس قبل تحويل القبلة أو من لم يصله خبره. فأضحى هذا التوجه علامة دائمة على مركزية المسجد الأقصى في شعائر المسلمين وتصورهم للآخرة، خصوصًا حين وصفه رسول الله ﷺ، في المرحلة المدنية، بأن بيت المقدس هي أرض المحشر والمنشر، وسيحشر الناس إليها قبل الحساب. لكن العلاقة في الفترة المكية لم تقتصر على أمر القبلة بل تجاوزت ذلك في الإعداد الرباني لارتباط رسول الله وأصحابه بثاني مسجد وضع على الأرض في قلب الأرض المقدسة المباركة فارتبط الصحابة ببيت المقدس من خلال القصص القرآني لأنبياء الله على تلك الأرض المقدسة ولأول نبوءة في القران في سورة الروم، مما أسس لبنية إدراكية تربوية جماعية استوعبها الصحابة وعبّروا عنها بسلوك تعبدي موجه نحو الأرض المقدسة المباركة. وتم تتويج هذه الروابط برحلة الإسراء والمعراج وفرض الصلوات الخمس، لتكتمل دورة الوحي الروحي والعملي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، باعتباره معراجًا لأرواح المؤمنين، ومنطلقًا لتكليفهم الشرعي.

وبذلك تُثبت هذه الدراسة أن العلاقة ببيت المقدس لم تكن ظرفًا مكانيًّا عابرًا، بل تأسيسًا تربويًّا ونبويًّا، تجسّد في القبلة الأولى. ومن هنا، فإن العلاقة ببيت المقدس في التصور الإسلامي هي عهد مستمر تأسّس منذ فجر الرسالة، واستمر أثره في حياة الصحابة، وفي عبادتهم، ليظل بيت المقدس بوصلةً روحانيةً للمسلمين، إلى أن تُبعث الخلائق على أرضه يوم القيامة.

ويوصي البحث بضرورة إدماج بيت المقدس ضمن مناهج السيرة النبوية، لا بوصفه محطةً عابرة في رحلة الإسراء فحسب، بل باعتباره مركزًا تأسيسيًا في التكوين الشعائري والعقدي للمسلمين الأوائل، وركيزة روحية حاضرة في النص القرآني والممارسة النبوية منذ المرحلة المكية. كما يُوصى بإعادة قراءة علاقة النبي ﷺ والصحابة بالمقدسات من منظور تربوي وتاريخي يراعي امتداد الشعائر عبر الجغرافيا، لتُدرج مادة بيت المقدس بوصفه القبلة الأولى للصحابة في التربية الإسلامية، لما له من موقع تربوي ساهم في تشكيل الارتباط الروحي ببيت المقدس وتشكيل الجيل الفريد. وتحث الدراسة المؤسسات الأكاديمية على تطوير مناهج تعليمية متخصصة في "المقدسات في السيرة النبوية"، تتناول المسجد الأقصى وموقعه في خارطة الوحي، وسياقاته التربوية والعقدية، كما تؤكد على أهمية استثمار الآثار المعمارية والروابط الشعائرية بين المسجدين في بناء سردية إسلامية متكاملة تفند الرواية الصهيونية حول بيت المقدس. وتوصي أيضًا بإجراء بحوث مقارنة بين شعائر الصلاة لدى الأنبياء وقِبلة كل مرحلة، وربط ذلك بالتحولات التاريخية والتشريعية، مما يساهم في بلورة فهم تراكمي لمسار القِبلة في الإسلام، ويُعيد الاعتبار للتوجه نحو بيت المقدس كمكوّن تعبدي وتأريخي في وجدان المسلمين، لا سيما في ظل التحديات المعاصرة التي تواجه رمزية هذا الموقع المبارك وخصوصا وهو يئن تحت حِراب الاحتلال.

ACKNOWLEDGEMENT
The authors wish to express sincere appreciation to Bayt al-Maqdis Studies and Islamic History, Social Sciences University of Ankara which provided an enabling academic environment for the development of this work.

AUTHOR CONTRIBUTIONS
Conceptualization, methodology, validation, formal analysis, review and editing, Khalid Al-Ewaisi.

CONFLICT OF INTEREST
There is no conflict of interest regarding the publication of this manuscript. The research was conducted without any commercial, financial or personal relationships that could be interpreted as influencing the findings or interpretations of the study.

ETHICS STATEMENT
This study did not involve human or animal subjects. All data were obtained from publicly accessible sources and did not include any personally identifiable information. Therefore, ethical approval was not required.

ARTIFICIAL INTELLIGENCE (AI) GENERATED TEXT DECLARATION
No AI tools were used to generate original content, conduct analysis, or replace any part of the researcher's intellectual contributions.

DATA AVAILABILITY STATEMENT
The original contributions presented in the study are included in the article/supplementary material, further inquiries can be directed to the corresponding author.

REFERENCES

Abu Dawud, S. (2009). *Sunnan Abu-Dawud.* Dar al-Risalah al-'Alamiyah.

Ahmad, K. (2024). Masjid al-Qiblatayn fi al-Somal Aqdam al-Jawami' fi Ifriqiyah. *Itihad al-Alam al-Islami.* https://www.unitedmuslimworld.com/17720

Al-Albani, M. (1995). *Silsilat al-Ahadith al-Sahaiha wa-Shay' min Fiqhiha wa-Fawidiha.* Maktabat al-Ma'arif lil-Nashir wal-Tawzi'.

Ali, J. (n.d.). *Tarikh al-Salah fi al-Islam.* Bagdad: Matba'at Diya'.

Al-Azraqi, A. (n.d.). Kitab Tarikh al-Madinah al-Munawarah, in manuscript: *Zubdat al-'A'maal wa-Khulasat al-'Af'aal fi Tarikh Makkah wal-Madinah.* Manuscript in Berlin State Library.

Al-Baghawi, H. (1420AH). *Tafsir al-Baghawi: Ma'alim al-Tanzil fi Tafsir al-Qua'an.* Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-'Arabi.

Al-Bu', M. R. (2008). Alfaz al-sujud fi al-Qur'an al-Karim dirasah lughawiyah. *Fikir wa-Ibda'.* 48, 87-137.

Al-Bukhari, M. (2001). *Sahih al-Bukhari.* Dar Ibn Kathir.

Darwazah, M. I. (1383AH). *Al-Tafsir al-Hadith.* Dar Ihya' al-Kitab al-Arabiyah.

Dawamul Muthi, A. (2022). *The Connection and Contribution of Abu Bakr to the First Muslim Liberation of Islamicjerusalem*, Master Thesis, Social Sciences University of Ankara.

Al-Ghazali, M. (1417AH). *Al-Wasit fi al-Mazhab.* Dar al-Salam.

Al-Hakim, M. (1990). *Al-Mustadrak 'ala al-Sahihayin.* Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Al-Halabi, A. (1427AH). *Al-Sirah al-Halabiyah: Insan al-'Uyun fi Sirat al-Amin al-Mu'mun.* Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Al-Hamawi, A. M. (n.d.). *Tuhfat al-Akyas fi Tafsir Qawilhi Ta'ala (Inna Awal Bayt wudi'ah lil-Nass).* Manuscript in Library of Makkah al-Mukarramah.

Ibn 'Abd al-Rabb, Y. (2019). *Al-Isti'ab fi Ma'rifat al-Ashab.* Markaz Hijir lil-Buhuth wal-Dirasat al-Islamiyah.

Ibn 'Asakir, A. (1995). *Tarikh Madinat Dimashq.* Dar al-Fikr.

Ibn 'Ashur, M. T. (1984). *Al-Tahrir wa al-Tanwir.* al-Dar al-Tunisiah lil-Nashir.

Ibn 'Atiyah, A. (1422AH). *al-Muharir al-Wajiz fi Tafsir al-Kitab al-Aziz.* Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Ibn Hajar al-'Asqalani, A. (1995). *al-Isabah fi Tamyyiz al-Sahabah.* Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Ibn Hazm, A. (1988). *Al-Muhala bil-Athar.* Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Ibn Hibban, M. (2012). *Sahih ibn Hibban.* Dar Ibn Hazm.

Ibn Hisham, A. (1955). *Al-Sirah al-Nabawiyah li-ibn Hisham.* Sharikat Maktabat wa-Matba'at Mustafa al-Babi al-Halabi wa-Awladuh fi Misir.

Ibn Ishaq, M. (1978). *Sirat Ibn Ishaq.* Dar al-Fikr.

Ibn Kathir, I. (1968). *Qasas al-Anbiya'.* Matba'at Dar al-Ta'lif.

Ibn Kathir, I. (1998). *Tafsir al-Qur'an al-Azim.* Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Ibn Khuzaymah, M. (1980). *Sahih Ibn Khuzaymah.* al-Maktab al-Islami.

Ibn Majjah. M. (2009). *Sunan Ibn Majjah.* Dar al-Risalah al-'Alamiyah.

Ibn Qayyim al-Jawziyah. M. (2019). *Igathat al-Lahfan min Masaid al-Shaytan.* Dar 'Ataat al-'Ilm.

Ibn Qayyim al-Jawziyah. M. (2019). *Muftah Dar al-Sa'adah wa-Manshur Wilayat al-Ilm wal-Iradah.* Dar 'Ataat al-'Ilm.

Ibn Rajab, A. (1996). *Fath al-Bari fi Sharh Sahih al-Bukhari.* Maktabat al-Ghurba' al-Athariyah.

Ibn Shabbah, U. (1979). *Tarikh al-Madinah li-ibn Shabbah.* n.p.

Ibn Taymiyah, A. (2004). *Majmu' al-Fatawa.* Majma al-Malik Fahd lil-Tiba'at al-Mushaf al-Sharif.

Jabareen, R. F. (2006). *Muslim Juristic Rulings of Islamic Jerusalem with special reference to 'ibadāt in al-Aqsa Mosque: a critical comparative study.* PhD Thesis, University of Aberdeen.

Al-Juwaini, A. (2007). *Nihayat al-Matlab fi Dirayat al-Mazhab.* Dar al-Minhaj.

Al-Khatabi, H. (1982). *Gharib al-Hadith.* Dar al-Fikr.

Muslim, M. (1955). *Sahih Muslim.* Issa al-Babi al-Halabi wa-Shuraka'uh.

Al-Mustawda al-Da'awi al-Raqami (2023). *Masjid al-Sahabah.* Site: https://dawa.center/islamic_centre/1024

Al-Qasimi, M. (1418AH). *Mahasin al-Ta'wil.* Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Al-Qurtubi, M. (1964). *Al-Jami' li-Ahkam al-Qur'an.* Dar al-Kutub al-Misriyah.

Qutub, S. (1412AH). *Fi Zilal al-Qur'an.* Dar al-Shuruq.

Al-Rabi, F. (2009). Islamicjerusalem the first Qiblah. *Journal of Islamicjerusalem Studies,* 10(1), 1-26.

Al-Ratrout, H. F. (2005). Al-Masjid al-Aqsa fi al-Athar al-Qur'aniyah. *Journal of Islamic Jerusalem Studies.* 6(1), 1-32.

Al-Razi, M. (1420AH). *Mafatih al-Ghayb.* Dar Ihya' al-Turath al-Arabi.

Al-Sha'rawi, M. (1997). *Tafsir al-Sha'rawi: al-Khawatir.* Matabi' Akhbar al-Yawm.

Al-Suyuti, M. (1982). *Ithaf al-Akhisah bi-Fadail al-Masjid al-Aqsa.* al-Hay'ah al-Misriyah al-Ammah lil-Kitab.

Al-Tabarani, S. (1994). *Al-Mu'jam al-Kabir.* Maktabat Ibn Taymiyyah.

Al-Tabari, M. (1967). *Tarikh al-Tabari: Tarikh al-Rusul wal-Muluk.* Dar al-Ma'arif bi-Misir.

Al-Tirmizi, M. (1975). *Sunan al-Tirmizi.* Sharikat Maktabat wa-Matba'at Mustafa al-Babi al-Halabi wa-Awladuh fi Misir.

Al-'Ulaymi, M. (1999). *Al-Uns al-Jalil bi-Tarikh al-Quds wal-Khalil.* Maktabat Dandis.

Al-Zarkashi, M. (1990). *al-Burhan fi 'Ulum al-Qur'an.* Dar al-Ma'rifah.